التواصل في الأسرة الجزائرية
ـ دراسة ميدانية ـ*

أ . عبد النور أرزقي**

مقدمة:

لا يمكن تصوّر مجتمعا بشريا دون عمليّة اتصال ، فالإنسان منذ أن وجّد وهو بحاجة للاتصال وإن اختلف نوعه ومستواه وذلك لارتباط بقائه بعناصر ومواضيع خارجة عنه وعن نسقه الضيق . بفضل الاتصال توجد العلاقات الإنسانية وبفضله أيضا تتطوّر ، فهو تبادل لفظي أو رمزي ، عبره تنقل الأفكار والآراء والمعلومات ، تلتقي في ما بينها في نسق تبادلي وتفاعلي يؤدي (الالتقاء) للتطوّر والنمو ، وهو حلقة وطيدة بين الأجيال عبر العصور ، لولاه لما وصل إلينا ما تركه الأولون وبه ينتقل ما نتركه للأجيال اللاحقة ، وهو أساس نمو الخبرات ، ما أحمله عبارة عن خبرات تكدّست عبر القرون وانتقلت إليّ ، أضيف إليها أو يضيف إليها غيري من المجتهدين والمبدعين خبرات وتنقل في شكل متكامل للغير ، وبهذا الترابط والتكامل يصنع التقدّم والتطوّر ناهيك عن التعاون والاستفادة ، وقد أصبحت الحياة الاجتماعية بدون « اتصال » شبه مستحيلة في عصر سمته السرعة والتعقّد ، وبذلك فإنّ الفاقد لقدرة الاتصال مع الغير ينعزل في عالمه الخاص ويصبح غريبا عن جماعته ومنصفلا عن الحياة الاجتماعية .

يحقق الاتصال للفرد الفعّالية ضمن كيّان اجتماعي يشكّل نسق تواجده ومرجعيّة حياته ، الفعّالية التّي تتحقق بفعل التفاعل مع الوسط الذّي يحيا فيه بكلّ ما يحمل من خصوصيات ويشكله من جوانب: ثقافية ، اجتماعية ، اقتصادية وحتى نفسية .

---

* أصله مداخلة قدمت في الملتقى الوطني الأول حول الإتصال ، جامعة سعد دحلب البليدة في جوان 2008 .

** المركز الجامعي العقيد أكلي محند أولحاج، البويرة.

يعتبر الاتصال أحد المواضيع الهامة أهميّة التفاعل وأهميّة الدور[1] بالنسبة للإنسان . موضوع لا زال يستقطب اهتمامات الباحثين والدّارسين في مختلف العلوم الإنسانية . وما يدفع للاهتمام به هو السعي لإيجاد وتحقيق الترابط والانسجام بين الفئات العمريّة ، بين الطبقات الاجتماعية ، بين التيارات السياسية ، بين المستويات المهنيّة . . . وبين الدول والمجتمعات والثقافات ، كلّ ذلك بهدف خلق الروابط الإنسانية

و تبادل الأفكار وتحقيق المنفعة ، وعلى ذلك يسهم في تحقيق الانسجام والتكامل والتواصل . ولا يكاد يختلف اثنان في كونه من أهم أسباب تحقيق النجاح وبلوغ الأهداف ، بل من أهم أسباب الفشل والتأخر ، ولا تكاد أية مقارنة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة من حيث الأسباب والحيثيات أن تخلو أو تغفل عن ذكر الاتصال في مقدمة القائمة .

1 . تحديد المفاهيم:

1 . 1 . الحوار: Le Débat

كلمة مأخوذة من الفعل حَاوَرَ مُحَاوَرَةً وحِوَارًا وحَوَارًا ، حاوره يعني جاوبه وراجعه الكلام ، وأحَارَ الجواب إحارةً أي ردّه ، ومنه « لم يَحِر جوابًا » أي لم يرد جوابا . يقال: « طحنت الطاحنة فما أحَارت شيئا » أي ما ردّت شيئا من الدقيق[2] وتحاور الناس يعني تراجعوا الكلام وتجاوبوا أو تبادلوا الحديث .

هو وسيلة لتبادل المعلومات عن طريق الرسائل الشفهية ، الإيماءات ، التعابير وردود الفعل[3] . يتطّلب الحوار وجود أكثر من فرد مع وجود موضوع معيّن أو مواضيع ، يتبادلان الحديث عنها ، غالبا ما يؤدي للتفاهم وتقارب وجهات النظر ، وعلى ذلك أصبح النّاس يستعملون مفهوم الحوّار للدّلالة عن الاتفاق خاصة في المواضيع الحساسة: الثقافية ، الاجتماعية ، الاقتصادية ، والسيّاسية .

(1) تتحدد أهميّة الفرد بأهميّة ومكانة وقيمة الدور الذّي يؤديه في الحياة .
(2) المنجد في اللغة والأدب والعلوم . الطبعة 17 ، بيروت: المطبعة الكاتوليكية ، بدون تاريخ النشر ، ص 160 .
(3) محمد أحمد النابلسي ، الاتصال الإنساني وعلم النفس ، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، 1991 ، ص 99 .

2.1. الاتصال: La Communication

يعني الفعل إتصل لغويًا بلغ وانتهى ، ومنه إتصل بالشيء أي التأم به[1] . وتشير معظم المعاجم العربية إلى أنّ الاتصال يعني الوصول لشيء أو بلوغه والانتهاء إليه » . أما في اللغة الفرنسية فالمفهوم (Communication) مشتق من الكلّمة اللاتينية Communisالتي تعني المعلومة المرسلة شفاهيا أو كتابيا ، كما تعني تبادل الأفكار والمعلومات عن طريق الكلام أو الكتابة أو الرموز »[2] .

هو عمليّة تبادل المعلومات بين فردين أو أكثر باستعمال رموز تشمل حركات ، كلّمات أو جمل تجعلها مفهومة[3] . يعرّفه بروكر Broker بعمليّة نقل فكرة أو مهارة أو حكمة من شخص لآخر[4] . وإن كان البعض يرى في الاتصال وسيلة إيصال لمعلومات من فرد لآخر أو من جهة لأخرى فإنّ الأكثرية تشترط حدوث الاتفاق والتفاهم للحديث عن الاتصال ، وبذلك يعد عملية اجتماعية ذات خطوات متسلسلة ومترابطة ، يتم فيها التفاعل لتحقيق هدف واضح ومحدّد ، تتم هذه العمليّة ضمن علاقة إنسانية ، ثنائية بين فردين أو جماعتين وبوسائل وأساليب عديدة ومتنوعة . ويعرّفه كولي Charles Couley بالميكانيزم الذّي من خلاله تحدث العلاقة الإنسانية وتنمو وتتطوّر الرموز العقلية بواسطة وسائل نشر هذه الرموز عبر المكان واستمرارها عبر الزمان . وتتضمن تغيّرات الوجه والإيماءات والإشارات ونغمات الصوت والكلّمات . فالاتصال إذن ليس مجرد بعث كلّمة أو إشارة أو صورة إنّما هو أعمق من ذلك ، به تحدث العلاقة الإنسانية وتكون لها دلالة خاصة وجدانية ، فالاتصال بهذا المعنى يتعدى مستوى إيصال ، إنّما ينتظر مُصدره من الطرف الآخر رد فعل أو تجاوبا أو إجابة ، لذا يرتبط أكثر ما يرتبط بالإنسان دون المخلوقات الأخرى . إلى هذا المعنى يذهب القذافي[5] حينما يقول بأنّ الاتصال ليس مجرد فعل أو

(1) المرجع السابق ، ص 903 .

(2) ربحي محمد عليان ، محمد عبد الدبس ، تكنولوجية التعليم: ماهيتها ، أهميتها واختيارها . عمان: دار الصفاء للنشر والتوزيع ، 1999 ، ص 25 .

(3) Sekiou, et al, Gestion des ressources humaines . Canada: de Boeck université, 1993, P . 512 .

(4) محمد عودة ، أساليب الاتصال والتغيّر الاجتماعي . بيروت: دار النهضة العربية ، 1971 ، ص 6 .

(5) محمد القذافي رمضان ، العلوم السلوكية في مجال الإدارة والإنتاج . الطبعة الأولى ، القاهرة: المكتب الجامعي ، 1997 ، ص 338 .

رد فعل ولا مجرد كلّمات معزولة ليس لها أي معنى .

الاتصال في أبسط صوره هو تبادل ، عمدي أو غير عمدي ، بين الأفراد ، ولتقارب مفهومي الحوار والاتصال ووجود تشابه كبير بينهما فإنّ الكثير لا يفرق بينهما أو يتعمّد عدم التفريق بينهما ، لذا يستعملان تناوبا للدّلالة على معنى واحدا ، فقط يستعمل الأول أكثر في المواضيع السيّاسية والاجتماعية بينما الثاني في المواضيع النفسية والإعلامية .

الاتصال عنصر أساسي ومركّب في الحياة الاجتماعية ، يحقق تفاعل الأفراد ، يتسم بكونه متبادل . ويشمل نقل المعلومات الموجهة لإعلام أو التأثير على الفرد أو الجماعة المستقبلة ، إلى جانب مهام أخرى هامة ومعقدة ، وعلى ذلك لاتخلو أغلبيّة التعاريف من الإشارة لعمليّة التأثير ففيورweawer مثلا يرى بأنّه « كلّ الإجراءات التّي بها يؤثر فرد عن آخر « و لاقاش Lagache» الوسيلة التّي بها يؤثر فرد على آخر أو يتأثر به»[1] .

3.1. النزاع: (Dispute (Conflit

هو التعارض بين موقفين[2] ، ففي مجال العمل مثلا يحدث بين أصحاب العمل والعمال ، قد يكون نزاعا قانونيا يتعلّق بتطبيق أو تفسير قانون أو حكم ، أو اقتصاديا أي لأهداف مادية قد لا يحكمها نص قانوني . من الممكن أن يحدث النزاع في أي ميدان ولأي سبب ولا شك أن للحوار دور كبير في حل النزاعات من منطلق ما يحققه من تفاهم وتقارب وجهات النظر .

إلى جانب النزاع يجري الحديث عن الصراع ، يرى البعض بأن لا فرق بين النزاع والصراع ويرى البعض الآخر بأنّ النزاع صورة مصغّرة للصراع ، أو واجهة الصراع ، إنّما الصراع أعمق وأكبر بكثير من مجرد تعارض بين موقفين ، وقد تحدّث علم النفس عن الصراع النفسي الذّي عرّفه بالحالة التّي يوجد عليها الفرد حينما ينقسم بين متطلبات متناقضة أو يكون خاضعا لتأثير قوى متعارضة . حدده هال Charle Leonard Hall

(1)Norbert Sillamy, Dictionnaire de psychologie . Paris: éditions Bordas, 1980, P _ 242_ 241

(2) أحمد زكي بدوي ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية . الطبعة الثانية ، بيروت: مكتبة لبنان ، 1993 ، ص 113 .

(1943) وميلير Neal Meller (1944) بالمنافسة بين اتجاهات متعاكسة[1] . وهو حالة انفعالية مؤلمة تنتج عن النزاع بين الرغبات المتضادة وعدم إشباع الحاجات أو عدم السماح لرغبة مكتوبة بالتعبير عن نفسها شعوريا واجتماعيا ، أو يعتبره علم النفس الاجتماعي أحد أنماط التفاعل الاجتماعي الناتج عن تعارض المصالح ، وهو الموقف التنافسي ، يعرف كلّ من المنافسين خصمه ويدرك أنّه لا سبيل للتوفيق بين مصالحه ومصالح الخصم فتتحوّل أو تنقلب المنافسة بينهما لصراع ، بحيث يسعى كلّ واحد لتحطيم الآخر والتفوّق أو التغلّب عليه ، وقد ظهرت نظرية قائمة بذاتها تسمى نظرية الصراع[2] The Conflict Théory تتحدّث عن دوره في المجتمع ، وهي من نظريات المجتمع الكثيرة التّي نرى بأنّ الظواهر الاجتماعية نتيجة للصراع . وإن كانت نظرية الصراع تنظر للعمليّة الاجتماعية في ضوء الميل العدواني للإنسان لا على أساس التعاون فإنّها ترى من زاوية أخرى « بأنّه رغم ما قد يصاحب الصراع من إمكانية تدمير النظام الاجتماعي فقد يعمل في بعض الأحيان على الحفاظ على النظام ، ذلك كصمام أمن أو كمصدر لحالة من التوتر تؤدي إلى تقوّية وتعزيز التنظيم الاجتماعي[3] .

1.4. التنافر: La dissonance

هو تباعد طرفين أو شيئين أو فردين بسبب وجود نقط اختلاف وغيّاب مساحات تلاقي أو تشابه . تحدّث علم النفس عن التنافر المعرفي أو الإدراكي Dissonance Cognitive وهو « حالة داخلية ناتجة عن انقسام بين رأيين أو عدة أراء متناقضة »[4] . والملاحظ أنّ سلوك الفرد عادة ما يكون منسق ، يعبر عن انسجام النسق النفسي ، حيث تتوازن أراءه واتجاهاته ، تعابيره ومشاعره . وبهذا الاتزان نحاول إيجاد نوعا من الاتزان مع المحيطين بنا ، ما يفسر تفضيلنا اختيار أصحابا ورفاقا من بين الأفراد المنتمين لنفس المحيط الثقافي الاجتماعي: لنا نفس الأهداف تقريبا ، ونفس

(1) (Norbert Sillamy, OP _ cit, P . 261 _

(2) ظهرت في نهاية الخمسينيات من القرن الماضي ، من روادها: دافيد لوكوود David Lock Wood ــ جون ركس John Rex ـ داهر ندروف Dahrendrouf ــ لويس كورز Lowis Coser .

(3) ميشل مان ، موسوعة العلوم الاجتماعية . (ترجمة: عادل مختار الهواري ، صعد عبد العزيز مصلوم) ، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية ، 1999 ، ص 144 .

(4) Norbert Sillamy, OP _ Cit, P . 378 _

الآراء . . . لكن قد يحدث لهذا الانسجام اضطراب بفعل أحداث مرتبطة بالعالم الخارج .

في هذا المعنى وضع فيستنجر Festinger نظرية سماها نظريّة التنافر الإدراكي ، يرى بأنّ الفرد يتميّز بنوع من التماسك الداخلي في عواطفه ، أفكاره ، تصوّراته ومعتقداته ، كما أنّ سلوكاته متزنة ومتجانسة . وفي حالة اضطراره الدخول في وضعيّة ، مهنية كانت أو اجتماعية أو غيرهما ، متعارضة مع نسق قيمه ينتج عن ذلك تصدّع التوافق العاطفي والتصوّري مما يؤدي لحالة التنافر الإدراكي وتنتج عنه اضطرابات نفسيّة[1] .

5.1. التواصل:

التواصل ترجمة لكلمة Continuation التّي تعني الامتداد والاستمرار[2] . وهو حالة اتصال بدون توّقف أو انقطاع في سلسلة ما ، مصدرها الفعل وَصَلَ يَصِلُ وَصلاً وصِلَةً أو وَصْلَةً ، يقال وَصَلَ الشيء بالشيء معناه لأمه وجمعه ، كما يعني وصل فلان فلانًا أحسن إليه أو برَه وأعطاه ، ومنه أَوصَلَ ، فأوصِل فلانا إلى كذا يعني أنهاه إليه وأبلغه إياه . أما وَاصَلَ وصَالاً ومُواصَلَةً معناه داومه وواظب عليه من غير انقطاع ، وتواصل الرجلان يعني تلاقا وضده تهاجرا[3] .

هو مستوى عال من التفاهم والتوافق بين فردين أو جماعتين أو بين فرد وجماعة ، لا يهم في ذلك من الغالب ومن المغلوب أو الراضخ ولا أيّة أفكار طغت على الأخرى ، فهو يعني تكامل الأفكار والمعلومات وحدوث نوع من الاتفاق من حيث الإدراك والفهم . وبذلك يمكن أن نقول بأنّ التواصل هو توّصل الاتصال لتحقيق هدفه ، ولا شك أنّ للتواصل فوائد كثيرة أهمها ربح الوقت واقتصاد الجهد ورفع مستوى الأداء بفعل البناء والتكامل والتوافق . . . يمكن ملاحظتها على المستوى الجزئي ، الوسطي والكلي . وبهذا يمكن الحديث عن التواصل الاجتماعي Social Transmission الذّي يعني العلميّة التّي تتنقل بموجبها السمات الاجتماعية عبر التربيّة والتعليم والتكوين .

(1) أحمد زكي بدوي ، مرجع سبق ذكره ، ص 113 .
(2) المرجع السابق ، ص 84 .
(3) المنجد في اللغة والآداب والعلوم ، مرجع سبق ذكره ، ص 903 .

2 . عناصر الاتصال:

لكي تتم عمليّة انتقال ونقل المعلومات لا بد من توّفر مجموعة من عناصر ، تشكل نسق الاتصال ، وفي حالة انبعاث معلومة من مصدر دون التقاطها أو وصولها فلا يمكن أن نسمي ذلك اتصالا ، أولا يمكن أن يرقى ـ كفعل ـ لمستوى الاتصال ، وكيفما كان هذا الاتصال وأيا كان نوعه فله عناصر أساسية تضمن حدوثه وتحقق أهدافه وهي:

2.1 . المرسل: L'émetteur

هو شخص لديه أفكار ومعلومات يوّد نقلها إلى طرف آخر ، وهو بذلك متأثر بمستوى فهمه وتفسيره وحكمه على الأفكار ، أو بصيغة أكثر دلالة ما يبعثه أو ينقله مرهون بالطرف المقابل ، فكم من أفكار نبعثها لا تؤدي المعنى الذّي نقصده لدرجة أنّ بعض الصراعات والنزاعات تنجم عن ذلك . من هذا المنطلق يتحدث علم النفس اللغوي عن المعنى الدلالي والمعنى الوجداني للكلّمة ، فليس دوما ولا بديهيا أن يكون ما تدل عليه الكلّمة هو ما أنتجته الحالة الوجدانية للمرسل ، ولعلّ أيضا تأخر فهم الجمهور للمبدع ، شاعرا كان أو أديبا أو فنانا ، سببه تلك الهوّة بين المعنيين أو ذاك الفرق بين المرسل والمستقبل من حيث القصد والإدراك . كما أنّ الفكرة مرتبطة بحالة المرسل النفسيّة ، وكذلك وصولها في أتم صوّرها مبني على ظروف تنظيمية ينبغي معرفتها مسبقا والتحكّم فيها .

2.2 . المستقبل: Le receveur

هو الشخص أو الجهة التّي توجّه إليها الرّسالة ، يتأثر في فهمه للرّسالة بثقافته ، معلوماته وخبراته السابقة[1] . كما يمكن أن يفهم الرّسالة خطأ بسبب حالته وأفكاره المسبقة ، يقول كانط: « لاَ نُدرك الأمور على ما هي عليها إنّما على ما نحن عليه » . وعلى ذلك فإنّ المرسل مطالب ، إذا أراد أن يصل ما يبعثه كما هو أو يريد أن يحقق أهدافه من تأثير وتغيير أو دفع ، بالوقوف على بعض الأمور المرتبطة بالمستقبل والتّي تحدّد مستوياته الإدراكية كالسن ، النضج ، المستوى التعليمي ، الحالة النفسية وغير ذلك ، فليست اللغة التّي توظّف مع البالغين نفسها التّي يمكن توظيفها مع الأطفال ولا مع الأميين نفسها مع المتعلمين . . . ومن الأمور الهامة أيضا تقارب

(1) Chantal Boussenault, Matrine prêtet, Economie et gestion de l'entreprise . Paris: Librairie Vuibert, 1995, P 130 .

هذه المستويات بين المرسل والمستقبل ولعلّ ذلك من أهداف بعث الرسل والأنبياء من القوم ذاته ، وفي العصور الحديثة عمد المستعمرون إلى الاستعانة أو توظيف أفراد من البلدان المستهدفة في محاولاتهم بسط نفوذهم وتعزيز تحكّمهم . و« وظيفة اللغة الأساسية هي التعبير عن الأحاسيس وتبليغ الأفكار من المتكلم إلى المخاطب »[1] ، فهي إذن وسيلة تعامل وتفاهّم قد لا تضاهيها أيّة وسيلة أخرى .

3.2. الرّسالة: Le message

هي المادة التّي تُبعث أو هي ما يُترجم من أفكار ومعلومات خاصة بمصدر معيّن في شكل مجموعة منظمة من إشارات ، تختلف باختلاف وسيلة الاتصال . وتعد اللغة الوسيلة الأكثر استعمالا ، وبها فُضل الإنسان ، جعلته أرقى المخلوقات » . وإلى جانبها نجد الاتجاهات ، التعابير الحركيّة ، الإيماءات كأنواع أخرى تعزز وتتمم العلاقة الكلامية »[2] . وحتّى المشاعر تنقل في حالات خاصة رسائل مشفرة . وفي هذا المضمار تحدّث فرويد S . Freud عن اتصال اللاشعور باللاشعور ، بحيث الأفراد قادرون على استقبال مؤشرات دون شعور . وقد أكد ألتو Palo Alto بأنّ كلّ سلوك اتصال . وتضاف إلى ذلك بعض الحيثيات المرتبطة بأسباب مختلفة كـ: انخفاض وارتفاع الصوت ، تدني قوّة السمع ، الضوضاء ، استعمال الكلّمات أو الإشارات . . . والهام في كلّ ذلك هو أنّ الاتصال الجيّد يحقق التوافق والتناسق ، لكن يتطلب عدّة شروط أكثريتها صعبة التوفير . والرّسالة ، وإن كانت وسيلة ، تمثل الهدف الحقيقي للمرسل ، الذّي يتبلور أساسا في تحقيق الاتصال الفعّال بين الأفراد والجهات[3] .

4.2. القناة: Le canal

قناة الاتصال هي الوسيلة الطبيعية أو الاصطناعية المستعملة لنقل الرسالة ، وطبعا لا يمكن أن تصل الرّسالة دونها ، مما يؤكد على أهميّتها في الحفاظ على الرّسالة مثلما صدرت ، وهو أمر يجعل من الممكن تغيير محتوى الرّسالة بتغيير أو التحكّم في الوسيلة . ومهما كانت الرّسالة متقنة

(1) حنفي بن عيسى ، محاضرات في علم النفس اللغوي . البعة الثانية ، الجزائر: الشركو الوطنية للنشر والتوزيع ، 1980 ، ص 75 .

(2)Norbert Sillamy, op _ cit, P 242 .

(3)Section Etal, OP _ Cit, P516 .

الصياغة ومحدودة الأهداف فإن لم توّفر لها قنوات جيّدة لن تحقق القصد ولن تؤدي الوظيفة ، بل تنقص قيمتها وتتلاشى أهميّتها .

5.2. التغذية الرجعية أو العكسية: Le feed back .

هي النتيجة الحاصلة عن وصول المعلومات للمستقبل ، تتمثل في ردّ فعله عن الرّسالة . وهي بمثابة المرآة التّي تعبّر عن الصورة التّي وصلت لها ، فبدرجة ونوع رد الفعل نحكم عن وصول الرّسالة أولاً وعن تحقيقها للهدف وحتّى عن فعّالية القناة ثانيًا . يمكن للتغذية الرجعية أن تأخذ نفس شكل الرّسالة أو شكلاً مختلفًا ، وتعتبر عمليّة تقويم مستمرة لفعّالية العناصر الأخرى ، وتلعب دورًا بارزًا في إنجاح عمليّة الاتّصال من خلال التعرّف على الأثر الذّي أحدثته الرّسالة» . ويمكن أن تأتي في عدّة صور كالرجع الإيجابي ، الرجع السلبي ، الفوري ، الآجل ، المسبق ، اللفظي وغير اللفظي[1] . مع الإشارة إلى أنّه من الممكن أن يتمّ الاتصال دون حدوث التغذية العكسية أو دون انتظارها لكن تبقى العمليّة ناقصة . تتمثل أهميّتها خاصة في التحقق من تحقيق الهدف وفي تقويم العمليّة ، مما يؤدي إلى إعادة النظر ، وبالتالي إدخال تعديلات أو إضافات قصد التحسين .

نشير أو نذكّر بأنّ تحليل الاتصال مبني على نموذجين أساسيين هما:

. التناول التقني .

. التناول النفسي الاجتماعي .

الأوّل وُضع من طرف شانون Shanon (1952) في إطار نظريّة الإعلام ، وقد عرف نجاحًا وانتشارًا كبيرين ، ينظر إلى الاتصال كوضعيّة تقنية Situation technique ، وهو إجابة عن انشغال هام في مجال صناعة الهاتف وتكنولوجية الاتصال في ذلك الوقت: كيف يمكن تحسين نقل المعلومة ؟ حسب شانون إذن الاتصال هو نقل رسالة من مكان لآخر[2] ومساره يمكن تحديده كما يلي:

(1) ربحي محمد عليان ، محمد ع . الرجس ، مرجع سبق ذكره ، ص 58 .

(2) Jean Claude Abric, Armond Colin, Psychologie de la Communication: théories et méthodes . PARIS: éditions PUF,1999,p. 8

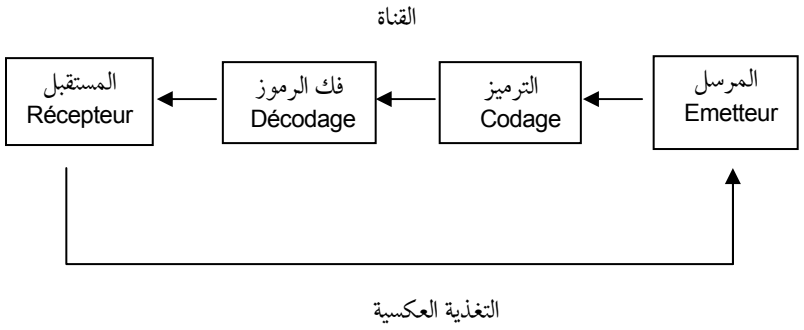

. مسار الاتصال لدى شانون .

المصدر: J . C . Abric, A . Colin, Idem, P8

يتمثل إذن أو يرتكز الاتصال على إيجاد علاقة بين مصدر الرّسالة (المرسِل) والموجهة إليه Le destinataire .

أمّا الثاني فيرى بأنّ الاتصال هو مجموع العمليات التّي تؤدّي إلى تبادل المعلومات والمعاني بين الأفراد في وضعيّة اجتماعية معيّنة ،[1] ممّا يعني أنّ الاتصال عمليّة اجتماعية قبل كلّ شيء ، يحدّد بفعل التفاعلات: كلّ اتصال تفاعل .

نرى بأنّ الاتصال يجب أن يتعدّى المستوى المادي أو أن لا يقتصر على الأدوات والوسائل ليهتمّ أكثر بالجوانب النفسيّة ، الاجتماعية والثقافية ، ولا يقتصر هدفه على إيصال المعلومة ، إنّما إحداث الهدف من وجودها ، أي التأثير . وهنا يمكن التحدّث عن الفعّالية l'efficacité ، فإذا كان نجاح الاتصال هو وصول رسالة المرسل إلى المستقبل عبر قناة معيّنة ثمّ حدوث تغذية رجعية تدّل على استقبال الرّسالة ، فإنّ الفعّالية تعني حصول الاستجابة المرغوبة أي تحقيق الهدف الذّي سطر للاتصال ، وتعني الفعّالية أيضًا حدوث تغيير في سلوك المستقبل نتيجة هذا الاتصال . وهنا يمكن الحديث أيضًا عن التفاعل الذّي يعني « العلاقة بين المرسل والمستقبل التّي تجعل من سلوك أيّ منهما سببًا لسلوك الآخر »[2] ، لذا تكون الفعّالية ناقصة إذا اقتصر التغيّر على المستقبل فقط ، وقد أكّدن الدّراسات التّي

(1) Ibid,p9 .

(2) أحمد محمد عليق وآخرون ، وسائل الاتصال والخدمة الاجتماعية ، الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث ، 2004 ، ص 37 .

أجريت في هذا المجال بأنّ 80% من الاتصالات لا تحقق أهدافها[1] .

3 . التواصل بدل الاتصال:

« هو تبادل المعلومات المفهومة من خلال استخدام الرموز بين طرفين » أو هو « العملية التّي يتمّ من خلالها التعبير والتبادل للأفكار والمعلومات » ، فهو إذن أكثر من الاتصال أو أشمل منه: يشترط أن تكون الرّسالة مفهومة ، وطبعًا هذا المستوى يرتكز على جانبين أحدهما يرتبط بالمرسل وضرورة جعل محتوى رسالته واضحًا ، حاملاً للمعنى ، والوسيلة الّتي يوظّفها فعّالة . والثاني يتصل بالمستقبِل وقدرته على الفهم وضرورة بذل جهد ما لفهم الرّسالة ، وطبعًا لأهميّة الرّسالة ونوعها ومحتواها دخل كدوافع ومحفزات . هذا الأمر يدفع كلاً منهما إلى التطلّع لمعرفة الطرف الآخر من كلّ جوانبه ، كما يتطلّب استعمال رموز بين الطرفين ، فإذا كانت اللغة مجموعة من رموز فإنّ فهمها أو تحقيق هدف الرّسالة يرغم المرسل على السعي للوقوف على المعنى الذّي يخلقه كلّ رمز لدى المستقبِل ، والمستقبِل لفهم المعنى الوجداني قبل الدلالي للرموز التي تُرسَل بها الرّسالة . ومن الجوانب الهامة في ذلك فهم نفسيّة أو على الأقل فهم حالة كلّ طرف أثناء حدوث الاتصال ، فإذا ما خاطبت فردا بعبارات دون أن يدركها أو دون أن تبعث لديه رد فعل معين فلا ترقى تلك الكلّمات لمستوى اللغة ، لأن اللغة حاملة أفكار ومعان ومنبهات » . والكلام (من كلّمة) هو كلّ مصدر عن الفرد من أقوال ، سواء أفادت أم لا ، بينما اللغة هي نمط من السلوك اللفظي ، وهي ظاهرة اجتماعية وأداة يتم بواسطتها التفاهم والاتصال[2] . التواصل إذن ليس مجرد تبادل المعلومات إنّما التكامل والاستمرار والانسجام في الأفكار ومن ثم توليد أفكار جديدة مبنيّة ، وذلك أشبه بالبناء فلو وضع أحدنا طوبة ثم وضع الثاني أخرى بجانبها (أفقيا) لاستمر البناء حتّى ندور على مدار الكرة الأرضية دون أن نحقق معنى البناء ، لكن يكفي أن يضع الثاني طوبته فوق الأولى (عموديا) ليسمى ما شكّل البناء . وإذا أضاف غيرنا لتمكننا من تشييد معلما أو سرحا في وقت قصير ، فالتواصل إذن لا يحدث سوى إذا تم بشكل بنائي

(1) Ernest Dichter, Communication et Motivation, Tipaza(Algérie): Berti éditions, 1991, P127 .

(2) حنفي بن عيسى ، مرجع سبق ذكره ، ص70 .

عمودي .

إذا كان للاتصال عناصر فإنّ فهم الرّسالة يعتمد أو ينبني على مستوى فهم المستقبل لها ، ولعلّ هذا هو حد التواصل ، فإذا لم يحدث ذلك ولم يؤد لرد فعل بقي الفعل اتصالا . ولكي يحدث فهم الرّسالة ووعيها يجب أن تكون المعلومة المرسلة مفهومة ، ولكي نجعلها كذلك لا يكفي أن نعي أو نتقن فنون صياغتها وأساليب بعثها إنّما أن نكون أيضا على دراية بالطرف الآخر (المستقبل) من جميع جوانبه: أحاسيسه ، مشاعره ، إدراكه ، مستواه العلمي ، عمره الزمني . . . وردود أفعاله .

و ليس كلّ ما هو محسوس مدرك ، فكم من معلومات وأحداث نحس بها دون أن ندركها .

لماذا . . . ؟

لأنّه لم يسبق لنا أن عشناها أو ليس لدينا معلومات عنها ، أو لأنّها لم تقدر على بعث فينا أي اهتمام ، أو لكونها بعيدة كلّ البعد عن مستوانا الإدراكي . ولا شك أنّ من أهم جوانب التواصل الجانب العاطفي والمشاعري ، هي شحنات غير محسوسة ولا يمكن قياسها ، إنّما يدركها باعثها ويشعر بتأثيرها مستقبلها . . . ولا تحدث سوى بتوفر مستوى عال من الترابط والتكامل .

إنّ الاهتمام بالمستقبل أهم شرط في حدوث التواصل ، المستقبل الذّي من أجله سعينا لتحويل أفكارنا لرموز مقروءة ، ولولا الطرف الآخر لما كانت الرّسالة أصلا ، ولولاه أيضا لما تحرّكت مشاعرنا وجادت قرائحنا وأكثر من ذلك ما نمت أفكارنا ، لولا القارئ ما كان الكاتب ولولا الجمهور ما كان المسرحي[1] . . . حياة أفكارنا مرهونة بمدى فهمه لها ، فإذن إن لم يحدث التواصل بقيت المستويات على ما هي ، وعلى ذلك فإنّ التواصل هو الاهتمام بالآخر ومعناه معرفته من كلّ نواحي شخصيته: قيمه ، اتجاهاته ، تفكيره وسلوكه . . . فلا يكفي أن نبعث معلومة أو ننقلها إنّما ينبغي أن تُدرك وتُحدث استجابة . . . وأكثر من ذلك وفق ما أتصور . ولا يجب أن أقيس تواجدي بمقدار أو عدد الرّسائل إنّما بما تحدثه وتنتجه . . . فقد تحدث رّسالة واحدة ما تعجز عن إحداثه ملايين الرّسائل ، وقد

(1) مثلما يحتاج الفنان لزوجة تستمتع بإنتاجاته هو بحاجة لمجتمع أو محيط يتقبل إبداعاتهGénes

تُحدث رّسالة قصيرة مقتضية ما لا تحدثه رّسالة طويلة مفصّلة . . . المعنى إذن في التأثير وفي مدى تحقيق الهدف .

يوضح الشكل الأول الآتي عناصر عمليّة الاتصال والشكل الثاني شروط عملية التواصل:

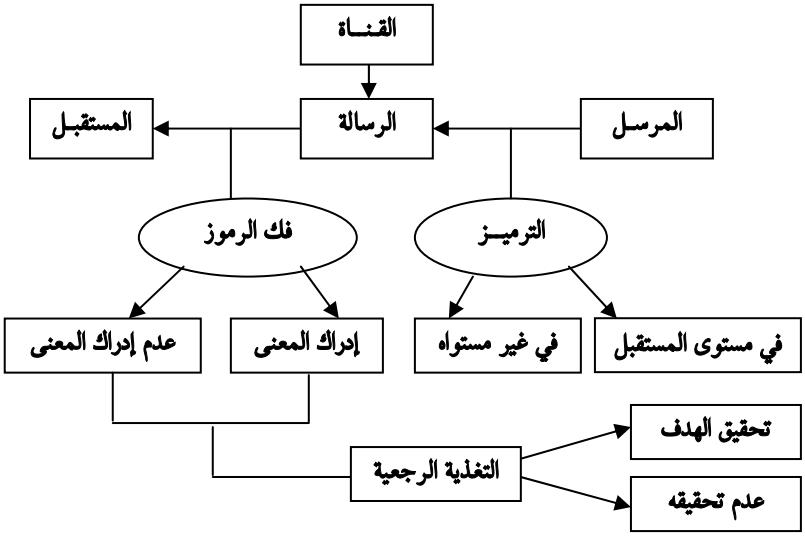

الشكل الأول: عملية الاتصال

نلاحظ إذن بأنّ العملية مستمرة ، غير متقطعة ، إذ الرّسالة (والمرسل) تؤثر في المستقبل وتؤدي لتغذية رجعية ، التّي بدورها تؤثر ـأيضا ـ على المرسل . إضافة إلى إحداث التواصل لتغذية رجعية إيجابية ، فالعملية أكثر بكثير من أن تكون مجرد اتصال .

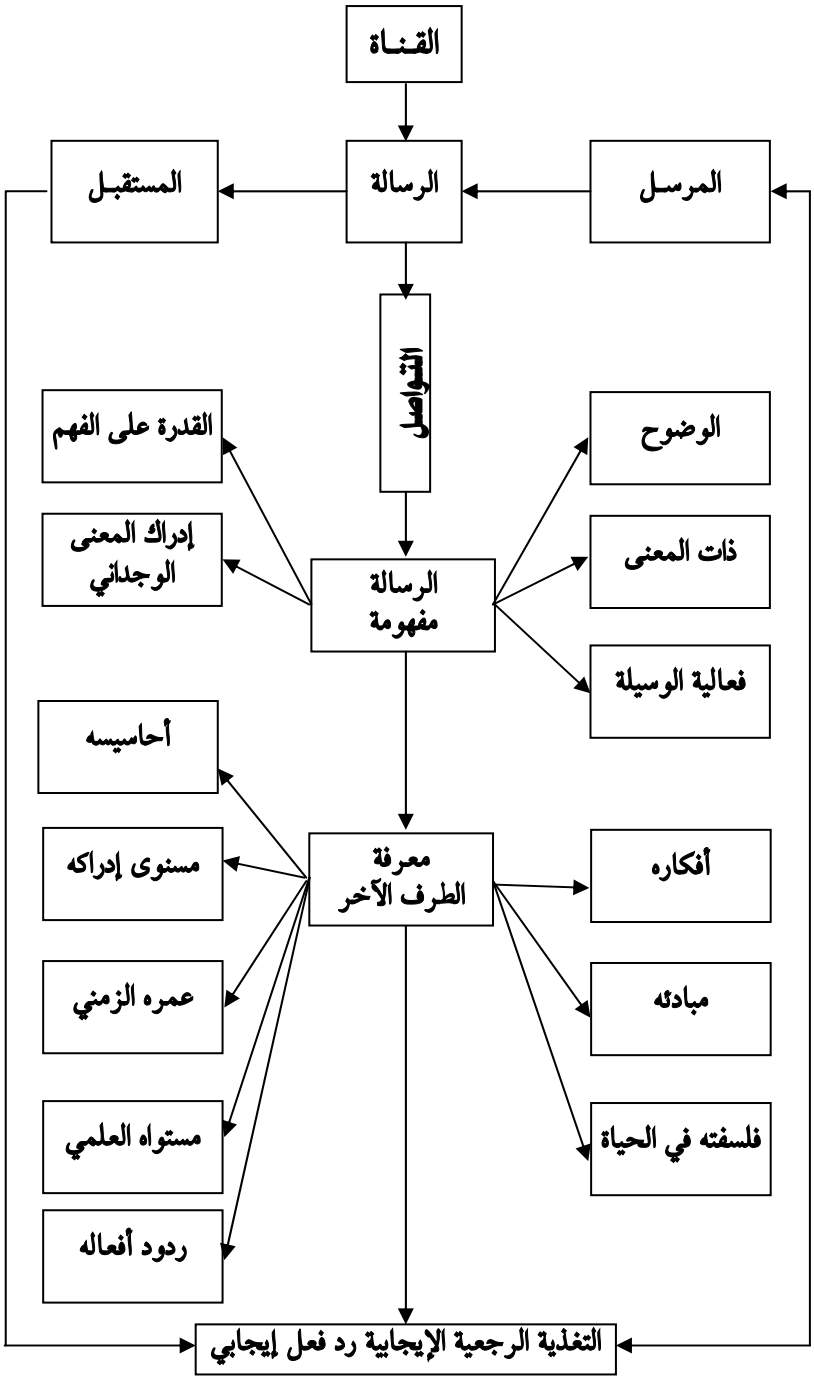

الشكل الثاني : شروط عملية التواصل

4 ـ أهميّة التواصل:

يعبر التواصل عن أحد الجوانب الهامة في العلاقات التبادلية بين أفراد تجمعهم عمليّة اتصال . من المفروض أن يؤدي الاتصال كنتيجة بعيدة ، إلى جانب ضمان إرسال واستقبال الرسالة ، إلى نسج علاقات متينة بين الأفراد أو بناء جسور تواصل . والعلاقات بدورها هي روابط اجتماعية تظهر في جماعة أو في مجتمع ، هي روابط روحية ، دينية ، ثقافية ، عملية . . . أو علاقات خاصة اتصالية ، وإلا بقيّ علاقة نفعيّة فقط ، زالت بزوال المصلحة . تحدّث في هذا الباب كارل ماكس K . Marx عن الاتصال المادي La Communication matérielle في جماعة عمل ، اتصال مرتبط بالعمل والإنتاج كنشاط .

يؤدي التواصل إلى ظهور أشكال جدّ مركّبة للنشاطات ويؤدي في النهاية إلى تطوّر المجتمعات بفعل التبادل ، التعاون وتضافر الجهود وتراكم النتائج ، فهو المحدد لجوانب أخرى من الحياة الاجتماعية والنفسيّة » . وإذا كان النشاط هو إسهام الفرد في الطبيعة فإنّ الاتصال كنشاط هو إسهامه في الأفراد الآخري[1] ، فبالاتصال يحدث التواصل وهو يعني إضافة في صورة نقل خبرة أو معلومة (معرفة) ما لفرد أو لأفراد آخرين ، تسهم في تنميّة قدراتهم وفي تكوين شخصياتهم . . . يقول فؤاد البهي السيد: « كلّ ما أعرّفه عن الإنسان تعلّمته من الإنسان » ، وهو الأمر الذّي يفصل بين الإنسان والحيوان . يوجد الفرد في عالم بمستوى ثقافي وحضاري معيّن تحقق ورسم بفعل انتاجات وخبرات السابقين ، فلا يمكن أن نتخيّل طفل القرن الواحد والعشرين بأفكار طفل القرن الرابع مثلا ، ومما لا شك فيه أنّه لو افترضا رجوع (ميلاد) إنسان هذا القرن لما أدرك ما نعيشه حاليا من تكنولوجيا ولما تقبّل حتّى بعض الحقائق العلميّة التّي نستهلكها يوميا ويستهلكها بعضنا دون فهمها ولا السؤال عن كيفيّة حدوثها . ولعلّ تعرض علماء سبقوا أزمنتهم بالمعاداة ، البطش وحتّى الإعدام كقاليلي سببه ضعف أو غيّاب التواصل ، فلو انطلقوا واهتموا بأحد شروط التواصل ـ مستوى فهم المستقبل ـ لما جهروا أفكارهم ولما كان رد فعل الدائرين بهم سلبيا . جعلت نشوّة الانتصار العلمي أرخميدس يخرج ـ في لحظة إبداع واتنصار

(1) Norbert, Sillamy, OP _ Cit, P 242 .

اختصرت سنين معاناة علميّة واعتصار فكري ـ عاريا وهو يصرخ بملء فاه: وجدتها . . . لم تؤد بالمشاهدين سوى للاستغراب ونعته بالمجنون ، لأن الهوّة بين مستوى تفكيره كعالم ومخترع ومستوى تفكيرهم كبسطاء شاسعة . . . فلم يحدث التواصل . وهي إشارة أيضا لما يعرّف بصراع الأجيّال الذّي أسميه تفاوت الأجيّال .

و هنا أشير لتفسير محمد بوخبرة لظاهرة الإرهاب واختزان أسبابها في الهوّة الكبيرة الفاصلة بين أفراد المجتمع من حيث المستوى الثقافي ، الفكري والاجتماعي ، فنجد ـ كمثال ـ في أسرة طبيا وأميا ، يجلسان على مائدة طعام واحدة وينافشان أمور الأسرة و« مشاريعها » . . . أمر طبيعي أن يظهر نوع (بسيط) من التنافر والتباعد بين الأفكار وهو في الحقيقة تطوّر وتقدّم ، أفكار جيل تطوّرت ونمت على إنقاص أفكار الجيل السابق ، وعلى ذلك لا يمكن تقبل ما يلاحظ لدى العامة من لهفة الرجوع لأفكار وعادات ونمط عيش زمن غابر ، وما يتردد في التربية مثلا من أقوال تمجد وتتحسر عن أمور غابت كـ: « كنا نحترّم معلمينا ولا نقدر على مواجهتهم » ، « كان كلّ الكبار يعاقبوننا » . . . وما إلى ذلك . والحقيقة هي أنّ ذاك زمان وهذا زمان آخر ، تلك أمور وأفكار كانت مقبولة بفعل تواصل ذاك الزمان والآن مرفوضة وأخرى بدلها مقبولة بفعل تواصل آخر أو نوع آخر من التواصل .

ينبغي أن يحدث التواصل على جميع الأصعدة: في الأسرة بين الولي والأولاد ، في المدرسة بين المعلم والتلميذ ، في الجامعة بين الأستاذ والطالب ، في المنظمة بين الرئيس والمرءوس ، في الدولة بين القمة والقاعدة وفي المجتمع بين طبقاته وفئاته . . . وحتّى بين الثقافات والحضارات وهو أمر يعرّف بحوار الثقافات . . . والفكرة الأساسية والهامة في التواصل هي التكامل والتعاون من أجل البناء .

5 . الأسرة والتواصل:

الأسرة هي الخليّة الأولى التّي يعيش فيها الطفل ، يتلقى تربية معينة ، يتعلّم عادات وسلوكات معيّنة ، والوالدان هما نموذج الطفل من خلال معايشتهما يتعلّم الكثير من الأمور ويقلّدهما حتّى في أبسط التصرّفات . وحين الحديث عن الأسرة يقرأ من ورائها كلّ ظروفها: الثقافية ، الاقتصادية ، الاجتماعية وحتّى النفسيّة . وركيزة الأسرة (في التربية)هي

المرأة ، فكلّما وعت الأم دورها صعبت مهمتها لكن بالمقابل حققت من أهدافها الكثير . ولدورها فعّالية كبيرة في المحافظة على الأبناء . . . تربية الأجيّال التّي لا تعني نقل الأفكار فحسب (اتصال) إنّما خلق فرص وقدرة تنميتها . يقول ابن باديس: أفضّل المرأة التّي باستطاعتها تعليم أبنائها كيفيّة الطيران من التّي تطير ، فمن واجب الوالدين الحضاري قبل التربوي خلق جوّ التواصل . والمؤكد أنّ التواصل لا يعني إيجاد جو ثقافي عال كالحديث عن مواضيع علمية أو أدبية عالية إنّما هو خلق فضاء لإبداء الرأي ومناقشة وتبادل الآراء . . . وإضافة شيئا لما هو موجود لدى الأبوين أو بشكل عام لدى الراشدين ، أيا كان مستوى الأفكار وأيا كان نوع الموضوع ، مما يعني بأنّ التواصل يمكن بل يجب أن يحدث في كلّ أسرة مهما كان مستواها . التواصل يعني أيضا إعطاء الحرّية للأبناء للتعبير عما يجول بخواطرهم وما يتخمّر بمخيّلاتهم ، ويعني أيضا توجيههم ورسم أمامهم مسالك البرهنة المنطقية Raisonnement . وأولى شروط تحقيق هذا السلوك الحضاري استعمال لغة المشاعر التّي من كلّماتها الحب ، العطف والحنان ، ولاعتبارات التربية بالمحاكاة فإنّ هذا السلوك ينبغي أن يكون منطلقه الراشدين: الزوج والزوجة (الأب والأم) ، إذ لا يمكن أن يحدث التواصل دون تفاهمها واستقرار علاقتهما المبنيّة هي أيضا على المشاعر كأساس للرابطة الأسريّة وقوّتها .

توصلت دّراسة أجرّيت على مستوى ثانويات الجزائر العاصمة في أفريل 2007 إلى أنّ 40% من التلاميذ يتعاطون المخدرات بسبب غيّاب الاتصال والحوار بينهم وأوليائهم[1] . والواضح أنّ التلميذ في هذا المستوى وهو مراهق أحوّج ما يكون لفضاء الحوار والنقاش مع الأولياء ، الأساتذة ، الزملاء ومجتمعه الخاص . . . على الأقل بإنشاء خلايا للاستماع أو الإنصات ، يلقي فيها المراهق أراءه وانشغالاته .

يميل دور الأسرة اليوم أكثر إلى العمل على بناء الهوّية الشخصية للأفراد ، ليس على مستوى العلاقات القرابية فحسب ، لكن تعمل على إقامة الربط وتدعيم التواصل ما بين الأجيّال[2] ، فإذن تعد الحلقة الهامة في

(1) Liberté (Quotidien Algerien),N0 4466 du 23 mai 2007,p5 .

(2) رشيد حمدوش « الأسرة وعمليّة التواصل الاجتماعي: محاولة لتحديد مفهوم الأسرة» . في: التغيّرات الأسرية والتغيّرات الاجتماعية ، جامعة الجزائر: كليّة العلوم الانسانية والاجتماعية ،

العلاقة بين الأجيّال ، وقد تدفع بنا التحوّلات والتغيّرات التّي مست المجتمعات وعبرها الأسرة إلى الاعتقاد بتفكك وضعف الروابط بين الأفراد ، ربما الأمر لا يتعدى كون نمطها تغيّر بل يجب أن يكون كذلك ، فالتواصل ينبغي أن يبقى . وإذا كان على الأسرة ، كأهم منشأة اجتماعية ، عبء الانتقال من التقليدية للحداثة كضرورة تولّدت عن تطوّر العصر فإنّ تحدّيات أخرى تواجهها في البلدان النامية في ظل ظروف غير متوازنة . من المشاكل التّي نعاني منها في العالم الثالث أو من ميزات عالمنا غيّاب جوّ الحوار والنقاش والتواصل ، وهي سمة تكاد تكون الغالبة على كلّ المستويات بدءا بالأسرة ونهاية بأعلى سلطة ، لا الولي يحاور أبناءه أو يستمع إليهم أو يناقشهم ليس فقط في أمور تهمهم كأبناء ولا أمور تهم وترتبط بالأسرة ، بل حتّى في أمور ذات علاقة بهم كأطفال أحوّج ما يكونون للمساندة والأخذ بأيديهم في مسار بناء حيواتهم وفي قضيّة تكوينهم النفسي ، الاجتماعي والثقافي ، ولا المدرسة بمؤطريها تستمع لانشغالات تلامذتها وتفتح معهم فضاءات نقاش وتبادل الآراء والأفكار ، ولا الشارع بجنباته يسمح بإبداء الرأي . . . وضعيّة تدل عن غيّاب روح التواصل ، كلّ واحد منزو في حيّزه ومنشغل بعالمه . . . وأحيانا أخرى يسعى لفرض رؤاه وفلسفته فرضًا . وضعيّة تدفعنا وتعيدنا لنقطة الانطلاق ، لنقطة الصفر: تحديد مفهوم الأسرة ودورها ثم تحديد أهداف كلّ مؤسسة اجتماعية .

الأسرة مؤسسة اجتماعية ، تنظمها معايير Normes مستندة على مجموعة من القيم التّي تنتمي وتستمد قوّتها من منظومة ثقافية معينة[1] . ورغم تميّزها وأساسية دورها إلا أنّها تعتمد على مؤسسات اجتماعية أخرى: تستلهم منها وتتأثر بتغيّرها ، « و إذا كان لكلّ مجتمع فلسفة اجتماعية أو ثقافية تحدّد بشكل أو بآخر دوافع أفراده فإنّنا كأعضاء فيه نتحصل على هذه الدوافع بواسطة التنشئة الاجتماعية »[2] ، لكن تبقى الأسرة المؤسسة الاجتماعية الأكثر أهميّة والأبلغ دورا ، بدونها لن يكون للنسق الاجتماعي وجود أو كيان . ورغم التحوّلات والتغيّرات التّي

العدد 02 ، الجزء الأول ، 2006 ، ص 283 .

(1) مصطفى زايد « الأسرة ، التغيّر والمؤسسات الاجتماعية » . في: التغيّرات الأسرية والتغيّرات الاجتماعية ، نفس المرجع ، ص 15 .

(2) Norman,W . ,Bel and Ezraf,Vogel, a modern introduction to the family . London: Routel edge keganpaul,1960,p . 269 _

اجتاحت الأسرة اليوم إلا أنّ التغيّر لم يتعد ولن يتعدى نوعيّة الدور ، ومهما توفرت شروط الرّعاية المادية والتقنيّة خارجها كدور الطفولة والمدارس . . . فلا يمكن تعويض ما تقوم به ، وتبقى محافظة على مكانتها كقاسم مشترك بين كلّ المجتمعات مهما تفاوتت من حيث المستوى الاقتصادي ، الاجتماعي والثقافي .

6 . الأسرة الجزائرية والتواصل:

تميّز التغيّر الاجتماعي بالجزائر عبر تاريخها بالجذرية (الراديكالية ، وقد أرجع ذلك الأستاذ مظهر لأسباب منها مقاومة التغير وغيّاب المرجعيات* ، مما حلق جوا مناسبا لظهور العدوانية الاجتماعية L'agressivité Sociale . ولا شك أنّ أي تغيير يجتاح المجتمع ـ أي مجتمع ـ يمس أو يمر عبر الأسرة . وقد تميّزت السنوات الأولى للاستقلال بظهور أشكال جديدة للأسرة ناتجة عن الهجرة نحو المدن والحركيّة بين المدن ونظام السكن الجماعي (العمارات) ، ثم عوامل أخرى ظهرت في ما بعد كالحرّيات الفردية ، تمدّرس البنات ، التحاق المرأة بعالم الشغل ، التضييع والاشتراكية . . . وفي السبعينيات ظهرت الأسرة الزواجية La famille conjugale ou nucléaire إلى جانب الأسرة الممتدة أو الموسعة La famille élargie ، وإن كانت الغلبة في السنوات الأولى للثمانينيات للأسرة الممتدة كنتيجة عكسية لحملات تحديد النسل[1] ، متولدة عن ميل الجزائري الشديد لمقاومة التغير** .

يرتبط نوع الأسرة بطبيعة المجتمع: تقليدي ، معاصر أو مختلط وهو مؤشر عن خصائصه الثقافية والاجتماعية ، الأمر الذي يؤدي إلى ظهور من حين لآخر لنوع على حساب الأنواع الأخرى ، والحقيقة أنّ ذلك مرتبط بمستوى تقدّم البلد أو بتعبير أصح بمدى مسايرته للعصر . ترجع سيّادة الأسرة الزواجية في بلادنا إلى سببين أساسيين أولهما اقتصادي ، فبعدما

* في كتابيه: Tradition développement,Alger: ENAP,1992 .
ـ La violence sociale,Alger: ENAP, 1996 .

(1) Mostefa Boutefnouchet (La famille Algerienne: quel modéle?) . In: Changements familiaux, changements sociaux . Alger: faculté des sciences humaines et sociales,N° 03,2006,p11 ,12 .

** لا شك أنّ لذلك أسباب تاريخية ، اجتماعية وثقافية .

كانت المصادر سابقا جماعية ، تتحصل الأسرة الممتدة والمركبة* على مصاريفها من مصدر جماعي كالفلاحة أو الصناعة (وحدة إنتاجية صغيرة) أصبح كلّ واحد موظف يتقاضى راتبا فريا . ثانيهما ثقافي وهو ميل الأزواج لامتلاك مسكن فردي خارج السكن العائلي والميل للاستقلالية من حيث النفقة وحتّى التفكير واتخاذ القرارات .

و على ذلك أصبحت الأسرة (الزوجية) هي المسئولة الوحيدة والقائمة بتربيّة الأطفال ، لكن تبقى العلاقات قائمة بينها والأسرة الممتدة عكس ما عليه في الدول الأوروبية ، بشعور الزوج وحتّى الزوجة بالانتماء والارتباط بالعائلة (الأسرة الممتدة) ، مما يخلق مشكل التصنيف Le Statut ليس للزوج فقط إنّما حتّى للأبناء . وتبعا لذلك ظهر « الزوج » Le Couple العامل ، وهو أمر يشكّل مشكلا كبيرا في مسألة التكفل بالأبناء وتربيتهم ، وكنتيجة ظهر عنصر جديد يتقاسم العلاقة بالأبناء مع الأولياء وهو الحاضنة La Nourrice . تتمثل أثار هذين الأمرين في كون « الزوج » الجزائري غير متعوّد على الدمج بين العمل والتربيّة وكون « مهنة » الحاضنة جديدة في مجتمعنا ولا تتم وفق معايير ومقاييس علميّة كالتكوين والاختيار ، لا يتمثل المشكل فقط في عدم تأديتها لدور التربيّة وعبره التواصل بفعل عدم تكوينها إنّما أيضا يحدث تصادم بين ما تؤديه وما يؤديه الأبوين . وفي أغلب الحالات الأبوان لا يراقبانها إنّما يقدمان أو يسلّمان الطفل لها وكفى ، وكأنّ الهدف لا يتعدى مستوى الحراسة والإطعام وهي لا ترى فيه سوى مصدر الربح . وتزداد الوضعية تعقدا بما يعيشه « الزوج » من ضغوط مهنيّة ، اقتصادية واجتماعية . مع العلم أنّ الفرد ـ أيا كان أبًا أم أمًا ـ يتأثر في تعامله مع أبنائه بإرث تربوي مترسخ ، ناتج عما مورس عليه وهو طفل من أنماط تربويّة في نسق أسري تربوي يختلف عما يتطلبه النسق الحالي في ظل الأسرة الحديثة أو التنظيم الأسري الحديث الذّي يسمح بالمبادرة والحرّية . . . ويرفض نسج علاقات اللااستقلالية والتبعيّة ، وهو أمر معقد جدا يشكّل عقباب بين تربيّة تقليدية وأخرى حديثة ، تؤدي لتداخل الأدوار وتصادم الآراء » . وإذا كانت الأسرة الزواجية نظريا أسرة حديثة فإنّ وصفها

*الأسرة المركبة هي الأسرة الناتجة عن تعدد الزوجات وتعدد الأزواج حيث تحدد أسرتان نوويتان(عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، السكندرية: دار المعرفة الجامعية ، 1996 ، ص 179) . أما الأسرة النووية فهي المتكونة من الزوجين وأبنائهما ، والأسرة الممتدة تضم إلى جانب ذلك الجد والجدة والأعمام .

في الجزائر يعطي شكلا آخراً ، فإذا كان من حيث التشكيلة ممكنا فمن حيث العلاقات والوظائف غير ذلك[1] ، وهو أيضا امر يؤدي لتصادمات أخرى من حيث التربية: بين « الزوج » والجد والجدة والأعمام .

أجرينا دراسة في فيفري 2008 ، مست الأولياء حول عمليّة الاتصال محاولة لمعرفة نوعه ومدى تحقيقه للتواصل ، نقدم في ما يلي نتائجها ونناقشها:

تكوّنت العيّنة من مائة (100) فرد من ولايتي تيزي وزو والبويرة ، تم اختيارها على أساس بعض الخصائص كالسن ، الجنس والمستوى التعليمي (معاينة قصدية) فجاءت خصائصها كما يلي:

ـ السن:

المدى	التكرار	النسبة
30 ـ 39	30	%30
40 ـ 49	38	%38
50 فما فوق	32	%32
المجموع	100	/

ـ الجنس:

الجنس	التكرار	النسبة
ذكر	59	%59
أنثى	41	%41
المجموع	100	/

ـ المستوى التعليمي:

المستوى	التكرار	النسبة
ابتدائي	29	%29
متوسط	23	%23
ثانوي	24	%24
جامعي	24	%24
المجموع	100	/

(1) Mostefa Boutefmouchet, op cit, p ـ 19 .

.المهنة:

المهنة	التكرار	النسبة
بطال	06	%06
ربة بيت	08	%08
تاجر	10	%10
موظف	27	%27
محامي	15	%15
أستاذ	32	%32
مدير مؤسسة	02	%02
المجموع	100	/

ملاحظة: ينقسم الأساتذة إلى: التعليم العالي: 15

ـ التعليم الثانوي: 10

ـ التعليم المتوسط: 07

.عدد الأولاد:

المدى	التكرار	النسبة
من 01 إلى 02	68	%68
من 03 إلى 04	22	%22
05 فأكثر	10	%10
المجموع	100	/

طبقنا استبيانا يتكوّن من اثني عشر بندا ، تشكّل خمسة محاور هي:

ـ وجود الحوار (أو النقاش) .

ـ نوع النقاش (كيف يتم؟) .

ـ التعامل مع الأبناء .

ـ العلاقة مع أفراد الأسرة .

ـ التواصل .

و جاءت النتائج على النحو التّالي:

المحور الأول:

رقم السؤال	السؤال	الإجابات	التكرار	النسبة
01	بعد العمل أين تقضي وقتك؟	خارج المنزل	18	20.93%
		في المنزل	68	79.06%
02	تناول الوجبات بالمنزل يتم:	بشكل جماعي	40	40%
		بشكل فردي	60	60%
03	و أنت تصطحب أسرتك لجولة ترفيهية أو لمطعم ماذا يهمك؟	الفسحة	77	77%
		إيجاد جو الحوار	20	%20
		أخرى (أذكرها)	03	%03
		تغيير الجو	03	%03
04	هل تناقش أولادك مواضيع خارجة عن اهتمامات الأسرة؟	نعم	64	%64
		لا	36	%36
	إن كان نعم ما هي؟	اجتماعية	43	%67.18
		سيّاسية	18	%28.12
		رياضية	12	%18.75
		ثقافية	09	%14.06
	إذا كان لا لماذا؟	عدم التعود على ذلك	27	%75
		لضيق الوقت	09	%25
		لا أرى في ذلك أية فائدة	00	%00

المحور الثاني:

رقم السؤال	السؤال	الإجابات	التكرار	النسبة
05	ماذا تفضل وأنت تتحدّث مع أبنائك ؟	إصدار الأوامر	36	%36
		إزداء النصائح والتوجيهات	50	%50
		إبداء الرأي	14	%14
06	كيف تتحدّث مع أولادك ؟	بصوت مرتفع	49	49%
		بصوت هادئ	51	51%
07	ماذا تفضل في الحديث ؟	الإنصات	48	%48
		الكلام	62	%62

المحور الثالث:

رقم السؤال	السؤال	الإجابات	التكرار	النسبة
08	و أنت تواجه مشكل عدم طاعة أبنائك لك كيف ستتصرف ؟	الضرب	29	%29
		العقاب Punition	23	%23
		مخاصمتهم والنفور منهم	17	%17
		التحدّث معهم حول المشكل	31	%31
09	هل تنصت لأفكار وآراء أبنائك ؟	دائما	30	%30
		أحيانا	48	%48
		و إطلاقا	22	%22

المحور الرابع

رقم السؤال	السؤال	الإجابات	التكرار	النسبة
10	و أنت تواجه مشكلا في العمل أو في الحياة كيف تحله؟	لوحدك	60	60%
		تأخذ رأي زوجتك و أولادك	10	10%
		تأخذ رأي أحدهما فقط	30	30%
11	عند تحدثك مع زوجتك ومع أولادك تستعمل . . . ؟	نفس الأسلوب	49	49%
		أسلوبين مختلفين	51	51%

المحور الخامس:

رقم السؤال	السؤال	الإجابات	التكرار	النسبة
12	أيهمك إدراء ردود أفعال من تحدثهم ؟	دائما	25	25%
		أحيانا	46	46%
		إطلاقا	29	29%
13	ألا تعتقد أن أسرنا تفتقد لجو الحوار والاتصال	نعم	100	100%
		لا	00	00%

نلاحظ في الجدول بأنّ أغلبيّة أفراد العينة (من الذين يشتغلون[1]) يقضون أوقاتهم في المنزل (79.06) ، لكن تبقى نسبة الذّين يقضونها خارج المنزل معتبرة أيضا (20.93) مما يعني أنّ فرص التلاقي مع الأولاد والزوج (أو الزوجة) قليلة وبالتّالي فرص تبادل الحديث والمناقشة قليلة أيضا . وإذا أضفنا ذلك للوقت المستغرق في العمل تصبح الصورة أوضح .

(1) 14من أفراد العينة لا يشتغلون: 04 بطالين ، 08 رباب بيوت ، لم يجيبوا عن هذا السؤال وبالتالي أصبحت العينة 86 فقط .

وفي السؤال الثاني الخاص بتناول الوجبات بالمنزل أجاب 60% بأنّه يتم بشكل فردي ، ذلك رغم كون نسبة كبيرة منهم ذوي مستوى عال (ثانوي ـ جامعي: 48%) ، أي يدركون دور تناول الوجبات جماعيا في تقويّة الأواصر والعلاقات وخلق جوّ الحوار والنقاش وبالتّالي فرص التواصل . وقد عززنا هذا بالسؤال الموالي الذّي يسعى لمعرفة ما يهم الولي من تواجده مع أفراد الأسرة فأكدوا على اهتمامهم بالجانب الترفيهي والسياحي (الفسحة) على إيجاد جوّ الحوار ، 77% مقابل 20% مع 03% لتغيير الجو الروتيني ، مع الإشارة إلى أنّ كلّ أفراد العيّنة أجابوا عن هذا السؤال رغم قلة هذا النشاط الترفيهي في مجتمعنا وهي ذات دلالة معينة ينبغي البحث عنها . وفي سؤال مباشر عن مدى مناقشة الأولياء لأولادهم في مواضيع خارج اهتمامات الأسرة كان النفي بـ 36% ، وهي نسبة معتبرة خاصة إذا قورئت ضمن نتائج الأسئلة السابقة: قضاء الوقت بعد العمل ـ تناول الوجبات بالمنزل ـ اصطحاب الأسرة لجولات ترفيهية . وتمثل سبب عدم مناقشة المواضيع مع الأولاد في عدم التعود على ذلك 75% (مقابل 25% لضيق الوقت) مما يدل على دور نمط التربيّة ونظام الأسرة . أما عن المواضيع المناقشة[1] (النسبة المقابلة) فأغلبيتها اجتماعية (67.18%) وبنسبة أقل سيّاسية (28.12%) ، رياضية (18.75%) وثقافية (14.06%) .

تؤدي بنا هذه النتائج إلى القول بغيّاب الحوار والنقاش في أسرنا .

أما المحور الثاني ففي السؤال الأول أكدت نسبة 50% تفضيلهم عند الحديث مع الأبناء إزداء النصائح والتوجيهات ، يليه إصدار الأوامر 36% فإبداء الرأي 14% . نلاحظ بأنّ لإصدار الأوامر نسبة لا بأس بها وبصوت مرتفع (49%) مع تفضيل الكلام عن الإنصات (62%) ، وهي أمور تدل عن كون النقاش غير مبني على التبادل ولا إعطاء للابن فرصة الحديث وإبداء الرأي . وفي المحور الثالث الخاص بالتعامل جاءت النتائج: عند مواجهة مشكل العقوق يلجأ الأولياء للضرب (29%) ، العقاب (23%) والمخاصمة والنفور (17%) بعد التحدث معهم عن المشكل (31%) . وإذا جمعت تلك النسب تصبح نسبة التحدّث معهم التّي جاءت في المرتبة الأولى قليلة جدا (31% مقابل 69%) . وإذا كانت نسبة 30% تنصت لأفكار وأراء الأبناء فإنّ48% لا يفعلون ذلك سوى أحيانا و22% لا يقومون بذلك

[1] ـ يسمح السؤال باختيار أكثر من مجال ، لذا مجموع النسب لن يكون 100.

بتاتا . أما عن علاقة الولي بباقي أفراد الأسرة (المحور الرابع) فدل السؤلان عن كون العلاقة أحادية ، الولي وهو يواجه مشكلا مهنيّا أو اجتماعيا يعمل على حله بنفسه ، دون حتّى استشارتهم أو أخذ أرائهم (60%) ، وإذا ما حدث وأن استشار الزوج والأولاد (10%) أو أحدهما (20%) فإنّه يستعمل نفس الأسلوب (49%) مما يعني عدم اهتمامه بمصدر الاستشارة ولا حتّى بنوعها .

نلاحظ إذن بأنّ واقع الحوار ، نوع النقاش ، التعامل مع الأبناء والعلاقة معهم تدل عن كون الاتصال في الأسرة هشا والحوار ناقصا والعلاقة غير مبنيّة على التبادل ، وهي مؤشرات عن غيّاب التواصل بين الأولياء والأبناء وبين طرفي «الزوج» . وقد أكّد أفراد العيّنة في المحور الأخير بأنّه لا يهمهم دوما إدراك ردود أفعال من يحدثونهم سوى بنسبة 25% وأحيانا بـ 46% ولا يهمهم إطلاقا بنسبة 29% . وفي سؤال ختامي أكدوا افتقاد أسرنا لجو الحوار والاتصال وبنسبة 100% . وإن كان من الصعب أو من الخطأ أن يؤكد الإنسان ذلك دون الاعتماد على نتائج دّراسات ميدانية فإنّ ذلك يبقى مؤشرا قوّيا على غيّابه لدى الفرد ذاته ، وعلى إيمانه بابتعاد الأسرة الجزائرية عن تحقيقه . أما عن الأسباب فقد لخصوها في: عدم إدراك أهميّته .

ـ عدم التعوّد عليه .

ـ النمط التربوي السائد .

ـ غياب ثقافة الإنصات (الاستماع للغير) .

ـ التربيّة التقليدية وما ينتج عنها من خوف وخجل وتردّد .

ـ سيادة ثقافة التعصّب للرأي وحب السيطرة .

ـ كثرة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية .

ـ عمل المرأة وغيّابها عن المنزل .

ـ ضعف مستوى الأولياء العلمي وعدم إدراكهم لدور الحوار والتواصل .

ـ احتلال التلفزيون والانترنت لوقت أفراد الأسرة .

ـ ضيق السكن وعدم وجود فضاءات للالتقاء وتبادل أطراف الحديث .

ـ الضغط المهني والاجتماعي الذّي يجعل الفرد لا يتحمّل الحوار .

و نسجل بأنّ أحد المستجوبين أثار فكرة هامة لكن خطيرة ، تتطلب البحث فيها أكثر وهي أنّ للصدمات المعيشة في بلادنا جراء كثرة الكوارث كالزلزال ، الفيضانات ، وظاهرة الإرهاب تأثير على ردود أفعال الأولياء (زيادة العصبية والتعصّب) وعلى الأبناء (النرفزة والخوف) .

خاتمة

و إن كان من الصعب تحقيق التواصل فإنّه أمر ممكن أيضا ، ولكي يحدث خاصة على مستوى الأسرة يجب أن يلقن في مؤسسات أخرى وعن طريق وسائل أخرى كوسائل الإعلام ، يجب أن يصبح ممارسة يوميّة ، وهو ثقافة قبل كلّ شيء ، هو إدراك للدور . وإن كان الأمر كذلك فينبغي أن يلاحظ في كلّ المؤسسات بدءا بالأسرة ونهاية بأعلى مؤسسة رسميّة . ويجب أيضا أن يلاحظ في كلّ المجالات وعبر كلّ السلوكات ، أمثلة بسيطة وملاحظات يومية عابرة تدل عن غيّابه في واقعنا الجزائري ، تجد مثلا وأنت تسير بسيارتك انقطاع مفاجئ في الطرقات . . بعد بضعة كلومترات في طريق واسعة ، معبدة ومنيرة في أخرى ضيّقة ، مهترة ومظلمة . . . تخرج من شقة نظيفة ، مرتبة لسلاليم موسخة ، متدهورة ولشارع لا يبعث سوى على التقيؤ . . . فرد رزين ، متحكّم كأب ومتعصّب ، متعجرف كمسئول أو معلم أو تاجر .

. . . أمور وإن كانت بسيطة فهي ذات دلالة كبيرة ودور أكبر .

نفس الملاحظات يمكن تسجيلها في واقعنا السياسي ، وبين دول عالمنا العربي . في أوروبا أصبح حلم 1957 المتعلق بتوحيد أوروبا حقيقة وواقعا ، سكان 24 دولة الآن بإمكانهم الانتقال من بلد لأخر دون جواز سفر ولا تسريح . . . نحن حدودنا مغلقة دون جدران وتواصلنا مكبل دون قيود . . .

أصبحت الدول تتسابق للانضمام لهدا التكتل في صورة تركيا والتشيك . . .

أين وصل الاتحاد المغربي: فكرة يطبل لها ويزغرد لها في كل مناسبة وهي اقتصاديا ، سياسيا وحتى اجتماعيا خاوية وهشة . . . وقس على ذلك .

مراجع البحث:

1 ـ أحمد زكي بدوي ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية . الطبعة الثانية ، بيروت: مكتبة لبنان ، 1993 .

2 ـ أحمد محمد عليق وآخرون ، وسائل الاتصال والخدمة الاجتماعية . الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث ، 2004 .

3 ـ حنفي بن عيسى ، محاضرات في علم النفس اللغوي . الطبعة الثانية ، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1980 .

4 ـ محمد أحمد النابلسي ، الاتصال الإنساني وعلم النفس . بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، 1991 .

5 ـ محمد القذافي رمضان ، العلوم السلوكية في مجال الإدارة والإنتاج . الطبعة الأولى ، القاهرة: المكتب الجامعي ، 1997 .

6 ـ محمد عودة ، أساليب الاتصال والتغيّر الاجتماعي . بيروت: دار النهضة العربية ، 1971 .

7 ـ ميشل مان ، موسوعة العلوم الاجتماعية . (ترجمة: عادل مختار الهواري ، سعد عبد العزيز مصلوم) ، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية ، 1999 .

8 ـ ربحي محمد عليان ، محمد عبد الدبس ، تكنولوجية التعليم: ماهيتها ، أهميتها واختيارها . عمان: دار الصفاء للنشر والتوزيع ، 1999 .

9 ـ المنجد في اللغة والآداب والعلوم . الطبعة 17 ، بيروت: المطبعة الكاثوليكية ، بدون تاريخ النشر .

10 ـ التغيّرات الأسرية والتغيّرات الاجتماعية ، جامعة الجزائر: كليّة العلوم الإنسانية والاجتماعية ، العدد 02 ، الجزء الأول ، 2006 .

11 ـ Chantal Boussemault, Matrine prêtet, Economie et gestion de l'entreprise . Paris: Librairie Vuibert, 1995 .

12 ـ Ernest dichter, Communication et motivation . Tipaza (Algérie): Berti éditions, 1991 .

13 ـ Jean Claude Abric, Armond colin, Psychologie de la communication: Théories et méthodes . Paris: éditions PUF, 1999 .

14 ـ Norbert sillamy, Dictionnaire de psychologie . Paris: éditions Bordas, 1980 .

15 ـ Norman ,w . , Beland Ezraf , vogel , A modern introduction to the family . London: Routel edge keganpaul ,1960 .

16 ـ sekiou et al, Gestion des ressources humaines . Canada:
De boek université ,1993 .

17 ـ Slimane medhar , tradition , développement, Alger: ENAP, 1992 .

18 ـ ----,La violance social , Alger: ENAP, 1996 .

19 ـ Liberté, Quotidien Algérien , N° 4466 du 23 mai 2007 .

ـ الإستبيـان ـ

بصدد إعداد بحث علمي ، نرجو من سيادتكم الإسهام فيه بالإجابة عن أسئلة هذا الاستبيان بكلّ صدق وموضوعية . نشكركم على تفهمكم ومساعدتكم .

ضع علامة (X) في الخانة التّي توافق اختيارك .

/1

السن: .....

المستوى **التعليمي**:

ـ ابتدائي ☐ ـ إكمالي ☐

ـ ثانوي ☐ ـ جامعي ☐

المهنة: .....

عدد الأولاد: .....

/2

ـ بعد العمل أين تقضي وقتك ؟

ـ خارج المنزل ☐ ـ في المنزل ☐

ـ تناول الوجبات في المنزل يتم بشكل:

ـ جماعي ☐ ـ فردي ☐

ـ وأنت تصطحب أسرتك لتناول وجبة الغذاء بالمطعم أو لجولة ترفيهية ماذا يهمك في ذلك ؟

ـ الفسحة ☐

ـ إيجاد جو الحوار ☐

ـ أخرى ☐

أذكرها .....

.....

ـ هل تناقش أولادك في مواضيع خارجة عن اهتمامات الأسرة ؟

ـ نعم ☐ ـ لا ☐

إذا **كان نعم ما هي ؟**

ـ سياسية ☐ ـ اجتماعية ☐

ـ رياضية ☐ ـ ثقافية ☐

إذا **كان لا لماذا ؟**

ـ لضيق الوقت ☐ ـ عدم التعوّد على ذلك ☐

ـ لا أرى في ذلك أية فائدة ☐

ـ ماذا تفضل وأنت تتحدث مع أبنائك ؟

ـ إصدار الأوامر ☐ ـ إزداء النصائح والتوجيهات ☐

ـ إبداء الرأي ☐

ـ كيف تتحدّث معهم ؟

ـ بصوت مرتفع ☐ ـ بصوت هادىء ☐

ـ ماذا تفضل في الحديث ؟

ـ الإنصات ☐ ـ الكلام ☐

ـ وأنت تواجه مشكل عدم طاعة أبنائك لك كيف ستتصرف ؟

ـ الضرب ☐ ـ العقاب (Punition) ☐

ـ مخاصمتهم والنفور منهم ☐

ـ التحدّث معهم حول المشكل ☐

ـ كيف تواجه رسوب أو فشل ابنك في الدّراسة ؟

ـ الضرب ☐

ـ التوجيه ☐

ـ التأنيب ☐

ـ هل تستمع لأفكـار وأراء أبنائك ؟

ـ دائما ☐ ـ أحيانا ☐ ـ إطلاقـا ☐

ـ كيف تفضل أن تكون علاقتك مع أبنائك ؟

ـ علاقة صداقـة ☐ ـ علاقة أب صـارم ☐

ـ علاقـة أب متهاون ☐

ـ وأنت تواجه مشكلا في العمل أو في الحياة الاجتماعية كيف تحله ؟

ـ لوحـدك ☐

ـ تأخذ رأي زوجتك وأولادك ☐

ـ تأخذ رأي أحدهما فقط ☐

ـ عند تحدّثك مع زوجتك ومع أولادك تستعمل:

ـ نفس الأسلوب ☐ ـ أسلوبا مختلفا ☐

ـ أيهمك إدراك ردود أفعال من تحدّثهم ؟

ـ نعم ☐ ـ لا ☐

في كلتا الحالتين لمـاذا ؟ .....

.....

ـ ألا تعتقد بأنّ أسرنا تفتقد لجو الحـوار والاتصـال ؟

ـ نعم ☐ ـ لا ☐

إذا كـان نعم ما هي الأسبـاب ؟ .....

.....

.....

شكـرا .